المأزق الوجودي الاسرائيلي

عماد شعيبي

عندما كتب أحدهم ان مشروع اقامة اسرائيل محكوم عليه بالفشل، جاءت الردود صاخبة بأن هذا ليس أكثر من أمنيات، أو ذرّ للرماد في العيون؛ ذلك ان نجاحات اسرائيل كانت تضع هالة كبرى أُخذت بالآنيات السياسية.

واذا كان قولنا ان اسرائيل لم تنتصر في مشروعها، انما العرب خسروا جولتهم مرحلياً، فقد يبدو هذا للبعض مُداورة لفظية. اننا نذهب أبعد الى القول ان اسرائيل لا تمتلك اصلاً مشروعاً استراتيجياً بالمعنى التخطيطي للكلمة، حتى تنتصر به.

فالواقع، ان اسرائيل تضع «أحلاماً» استراتيجية تصوغها، في بعض الاحيان، الاعتبارات المثيولوجية، او الرغبات، او الايديولوجيا البنائية التي تنطلق منها الحركة السياسية بهدف التعبئة. وثمّة، في رأينا، فرق هائل بين المشروع الاستراتيجي للامم وبين التعبئة الايديولوجية. فالمشروع الاستراتيجي يُرسم على أساس ان مسألة الوجود، بالمعنى الحقوقي والتاريخي، محسومة اصلاً، وذلك بالامتداد في العمق التاريخي اولاً، وبالوزن الدولي ثانياً، وبالحجم البشري، الكمّي والنوعي، ثالثاً. وهو لا يرسم خططه على أساس «التنبؤ» الايديولوجي ـ الميثولوجي، انّما على أساس «الممكن» الواقعي. أي انه يتوقع الممكنات، ولا يتنبأ بالحتميات؛ بينما قد تنجح التعبئة الايديولوجية ـ في ظروف ضعف الخصم ـ في بناء اوضاع مقلقة وذات حجم تهويلي، الاّ انها لا تنجح، اطلاقاً، في بناء اوضاع دائمة الاستمرارية على المستوى التاريخي. في اسرائيل، ذاتها، ادراك ان انتصارات اسرائيل مسقوفة بالتاريخ. وان هذه الانتصارات، وان كانت نجحت على مستوى ابرازها كهالة صعبة في المنطقة، الاّ انها لم تستطع ان تحوّلها الى هالة مستحيلة. هذا على الجانب المضاد. أمّا داخل المشروع الاسرائيلي ذاته، فان هذه الانتصارات قد أخفت على اسرائيل جوهر اشكالية وجودها، وهي اشكالية مركّبة يمكن تلخيصها على النحو التالي:

١ ـ مشكلة الموقع الجغرافي المعزول وغير المفتوح الاّ على البحر.

٢ ـ مشكلة تعداد السكان الصغير، والذي لا يبني مشروعاً له استمرارية في عالم الكتل البشرية، التي تتفاعل مع النوعية المفروزة لبناء وجود مضمون؛ حيث اثبتت الاحداث المتلاحقة هزال تصوّر امكان ان تغطي «النوعية» غياب كمّية كافية. وجوهر المشكلة يتلخّص في ان عدد سكان اسرائيل الذين لا يتجاوزون الخمسة ملايين، لا يمكن، عند «احتمال» استقدام كل يهود العالم، ان يزيد على ١٦ مليوناً، وهو احتمال تنفيه مقارنات الهجرة المعاكسة والهجرة الى اسرائيل، خاصة في السنوات الخمس عشرة الاخيرة؛ كما تنفيه اعتبارات الاستقرار «القومي» والوجود الاقتصادي لليهود في العالم،